بحث بعنوان

((شخصيَّة الحافظ «ابن كثير» التفسيرية (النقديَّة)
من خلال تفسيره لـ«قصص سورة الكهف»))

للباحث:

هشام السيد إبراهيم مصطفى خضر

المدرس المساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب
جامعة الزقازيق

ملخص البحث:

لم يقف الحافظ «ابن كثير» عند حد النقل عن الصحابة والتابعين فقط، بل تجاوز ذلك إلى النقل عن أئمة المفسرين لاسيما إمامهم وشيخهم «ابن جرير الطبري» (رحمه الله) – صاحب أول تفسير بالمأثور وأجمعه – شأنه في ذلك شأن غيره من المفسرين ممن أتوا بعد الإمام «الطبري»؛ إلا أن «ابن كثير» تميز بكثرة النقل عنه لدرجة جعلت بعض أهل العلم ينظر إلى تفسيره المسمَّى «تفسير القرآن العظيم» على أنه تلخيصا لتفسير الإمام «ابن جرير» المسمَّى «جامع البيان في تأويل آي القرآن»، لكن المتأمل في تفسير «ابن كثير» لـ«قصص سورة الكهف» - على سبيل المثال - يجد أن الأمر في حاجة إلى إعادة نظر، فصحيح أن «ابن كثير» لخص كلام شيخه «الطبري» في بعض المواضع، لكنه تلخيص تتجلى فيه شخصية «ابن كثير» بوضوح. وتتجلى – أيضا – شخصيته من خلال انتقاده لشيخه في المواضع التي يراه قد جانب فيها الصواب، ولا يعني ذلك أنه لم يتأثر بشيخه، بل تأثر به من خلال اختياره لآرائه في المواضع التي يراه قد أصاب الحق فيها. هذه النظرة الاعتدالية لم تكن منه تجاه «ابن جرير» فحسب، بل امتدت لتشمل كل من سبقوه أو عاصروه حتى أنها نالت من شيخه الذي يحبه رغم عدم اتصاله به شيخ الإسلام «ابن تيمية» والذي غدا موقفه منه أكبر دليل على اعتدال نظرته فلا إفراط في نقد غيره ولا تفريط في حق نفسه، بهذه النظرة الاعتدالية اتسمت شخصية «ابن كثير» التفسيرية، وبسببها نال إعجاب أهل العلم.

شخصيَّة الحافظ «ابن كثير» التفسيرية (النقديَّة) من خلال تفسيره لـــ«قصص سورة الكهف»[1]

الباحث: هشام السيد إبراهيم مصطفى خضر[2]

مقدمة:

لم يقف «ابن كثير» عند حد النقل عن الصحابة والتابعين فقط، بل تجاوز ذلك إلى النقل عن أئمة المفسرين لاسيما إمامهم وشيخهم «ابن جرير الطبري» (رحمه الله) – صاحب أول تفسير بالمأثور وأجمعه – شأنه في ذلك شأن غيره من المفسرين ممن أتوا بعد الإمام «الطبري»؛ إلا أن «ابن كثير» تميز بكثرة النقل عنه لدرجة جعلت **بعض أهل العلم ينظر إلى تفسيره المسمَّى «تفسير القرآن العظيم» على أنه تلخيصا لتفسير الإمام «ابن جرير» المسمَّى «جامع البيان في تأويل آي القرآن»، لكن المتأمل في تفسير «ابن كثير» لـــ«قصص سورة الكهف» – على سبيل المثال – يجد أن الأمر في حاجة إلى إعادة نظر**، فصحيح أن «ابن كثير» لخص كلام شيخه «الطبري» في بعض المواضع، لكنه تلخيص تتجلى فيه شخصية «ابن كثير» بوضوح.

ومن الأمثلة على ذلك ما فعل في **«قصة موسى والعبد الصالح»** عند تفسير قول الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا**﴾ حيث قال «ابن كثير»: "وقوله: ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا**﴾[3] أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان «يُوشَع» هو الذي نسيه،

(١) هذا البحث جزء من دراسة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة.

(٢) مدرس مساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب – جامعة الزقازيق.

(٣) سورة الكهف: الآية ٦٢.

كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[٤]، وإنما يخرج من المالح في أحد القولين"(٥). حيث لخص – هنا – كلاما ذكره «الطبري» مفصلا في موضعه من تفسيره؛ حيث قال (رحمه الله): "قال بعض أهل العربية [– يقصد «الفراء»–]: إن الحوت كان مع «يوشع»، وهو الذي نسيه، فأضيف النسيان إليهما، كما قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[٦]، وإنما يخرج من الملح دون العذب"(٧). ثم قال – مبينا رأيه - : "**وإنما جاز عندي أن يقال: ﴿نَسِيا﴾؛ لأنهما كانا جميعا تزوّداه لسفرهما، فكان حمل أحدهما ذلك مضافا إلى أنه حمل منهما،** كما يقال: خرج القوم من موضع كذا، وحملوا معهم كذا من الزاد، وإنما حمله أحدهم، ولكنه لما كان ذلك عن رأيهم وأمرهم أضيف ذلك إلى جميعهم، فكذلك إذا نسيه حامله في موضع قيل: نسي القوم زادهم، فأضيف ذلك إلى الجميع بنسيان حامله ذلك، فيجرى الكلام على الجميع، والفعل من واحد، **فكذلك ذلك في قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾؛ لأن الله (عزّ ذكره) خاطب العرب بلغتها، وما يتعارفونه بينهم من الكلام**"(٨).

ولا يبرح القارئ للنصين – نص «ابن كثير» ونص «ابن جرير»- أن يتلمس **شخصية «ابن كثير» في تلخيصه،** وهذا ما يتأكد بما جاء في **«قصة ذي القرنين»** عند تفسير ﴿سَبَبًا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[٩] حيث قال «ابن كثير»: "قال «ابن عباس»، و«مجاهد»، و«سعيد بن جبير»، و«عكرمة»، و«السدي»، و«قتادة»،

---

(٤) سورة الرحمن: الآية ٢٢.

(٥) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٧٤ و١٧٥، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ٨ج.

(٦) سورة الرحمن: الآية ٢٢.

(٧) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري (ت٣١٠هـ): جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج١٨، ص٥٧، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ٢٤ج .

(٨) المصدر نفسه: ج١٨، ص٥٧ و٥٨.

(٩) سورة الكهف: الآية ٨٤.

و«الضحاك»، وغيرهم: يعني علمًا"(١٠). وهذا فيه من الاختصار ما هو معلوم، وفيه من جمع المتشابهات بعضها إلى بعض، وهو نوع من **الجمع مع الترتيب**، والدليل على ذلك قوله بعد ذلك مباشرة: "وقال «قتادة» – أيضًا- في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: منازل الأرض وأعلامها"(١١). فذكر قول «قتادة» الأول منضما إلى قول غيره من الأئمة لمشابهة قوله قولهم، ثم أفرد قوله الآخر لمخالفته لقولهم. ثم أضاف «ابن كثير» قولا لم يذكره «الطبري» في هذا الموضع، فقال: "وقال «عبد الرحمن بن زيد بن أسلم» في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قومًا إلا كلمهم بلسانهم"(١٢). هذه الرواية تعد من **زيادات «ابن كثير» على «الطبري»**[١٣]، وهذا فيه دلالة على أن **تفسير «ابن كثير» ليس تلخيصا لتفسير «الطبري» كما يظن البعض، وذلك لأن فيه إلى جانب التلخيص الترتيب وجمع ما تفرق وتشابه، وفيه إضافات أضافها «ابن كثير»، وأهم من ذلك كله فيه انتقاد «ابن كثير» للطبري نفسه في مواضع ليست بالقليلة – كما سأبين لاحقا –. ما يعنى استقلال شخصية «ابن كثير» عن شيخه «الطبري» (رحمهما الله)**، وهذا ما سأكشف عنه في المبحث الخاص بـــ«**شخصية ابن كثير في تفسيره**».

* * *

المبحث الأول: تأثير الإمام «الطبري» في «ابن كثير»:

والباحث حال وصفه شخصية «ابن كثير» بالاستقلال لا يحاول أن ينفي تأثير الإمام «الطبري» في «ابن كثير»، فمن المعلوم ضرورة أن **الإمام «ابن جرير الطبري» كان له بالغ الأثر ليس فقط في «ابن كثير»، بل وفي كثير غيره من المفسرين،**

(١٠) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٩٠.
(١١) الموضع نفسه.
(١٢) الموضع نفسه.
(١٣) للتأكد من ذلك راجع: الطبري: جامع البيان، ج١٨، ص٩٣ و٩٤.

وما كانت تسميته بـ«شيخ المفسرين» إلا انطلاقا من هذه الحقيقة التي لا ينكرها إلا جاهل أو غافل أو جاحد.

وقد بدا تأثير «ابن جرير» في «ابن كثير» واضحا في تفسيره، والباحث إذ يدرس «قصص سورة الكهف» فإنه قد لاحظ كثرة روايات «ابن كثير» عن شيخ المفسرين أثناء تفسيره لتلك القصص، من ذلك ما ذُكر، ومنه – أيضا- ما جاء في «قصة أصحاب الكهف»، حيث نقل «ابن كثير» رواية عن «ابن جرير» ذكرها بسنده عن «ابن عباس»، ولم يعلق عليها(١٤). ومن ذلك ما جاء بعد ذلك بقليل عند تفسير قول الله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾(١٥) حيث قال «ابن كثير»: "أي: إنه لبصير بهم سميع لهم"(١٦). ثم نقل كلاما عن «الطبري» في معنى الآية(١٧). ثم ذكر الروايات التي ذكرها «ابن جرير» في ذلك(١٨). وهذا يكشف عن مدى تأثر «ابن كثير» بـ«الطبري» (رحم الله الجميع).

ومما يدل على تأثر «ابن كثير» بـــ«ابن جرير» اختياره لآرائه، وهو ما دل عليه فعله عند تفسير قول الله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾(١٩) حيث نقل «ابن كثير» رأي «ابن عباس»، وانتصر لفهم «ابن

(١٤) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٤٧. حيث قال«ابن كثير»: "قال «قتادة»: غزا «ابن عباس» مع «حبيب بن مسلمة»، فمروا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه عظامًا، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال «ابن عباس»: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه «ابن جرير»"ا.هـ.

(١٥) سورة الكهف: الآية ٢٦.

(١٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٥١.

(١٧) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٥١. حيث قال «ابن كثير»: "قال «ابن جرير»: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء".

(١٨) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٥١. حيث قال «ابن كثير»: "ثم روي [يقصد: «ابن جرير»] عن «قتادة» في قوله: (أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقال «ابن زيد»: (أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعًا بصيرًا".

(١٩) سورة الكهف: الآيتان ٢٣ و٢٤.

جرير» لكلام «ابن عباس»؛ يقول «ابن كثير»: "وقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: معناه إذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له. قاله «أبو العالية»، و«الحسن البصري»"(٢٠). ثم ذكر رواية عن «مجاهد» عن «ابن عباس» في الرجل يحلف؟ قال: "له أن يستثني ولو إلى سنة"(٢١)، قال: "وكان يقول: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك"(٢٢). ثم حاول أن يبين مراد «ابن عباس» من كلامه، فقال: "ومعنى قول «ابن عباس»: "أنه يستثني ولو بعد سنة" أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو كلامه "إن شاء الله" وذكر ولو بعد سنة، فـ«السُّنة» له أن يقول ذلك، ليكون آتيا بسُنَّة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الحنث"(٢٣)، ثم استشهد بكلام لـــ«ابن جرير»؛ قال: "قال «ابن جرير» (رحمه الله): ونص على ذلك، لا أن يكون [ذلك] رافعًا لحنث اليمين ومسقطًا للكفارة"(٢٤). ثم اختار قول «ابن جرير» هذا؛ حيث قال: "وهذا الذي قاله «ابن جرير» (رحمه الله) هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام «ابن عباس» عليه، والله أعلم"(٢٥). بهذا يظهر اختياره لكلام «الطبري»، لكنك تلحظ أنه لم يكن ناقلا لكلامه ومؤيدا له فحسب، بل كان مضيفا – أيضا – من خلال بيانه لمعنى كلام «ابن عباس». فأنت ترى أنه اختيار يحمل إضافة.

وهذا ما بدا واضحا من خلال «قصص سورة الكهف»، ففي «قصة صاحب الجنتين» عند ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾(٢٦) فسر «ابن كثير» الـ﴿فِئَةٌ﴾ بقوله "أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم

(٢٠) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٤٩.
(٢١) انظر: الموضع نفسه.
(٢٢) الموضع نفسه.
(٢٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٤٩.
(٢٤) انظر: الموضع نفسه.
(٢٥) الموضع نفسه.
(٢٦) سورة الكهف: الآية ٤٣.

واستعز"(٢٧). فوافق بذلك اختيار «الطبري»(٢٨)، ورغم ما ذكرته من اعتراض على هذا الاختيار في «الفصل الأول» الخاص بـ«الطبري» - فإن ذلك فيه دليل على مدى تأثر «ابن كثير» بشيخه.

ومن موافقته له ما جاء في **«قصة ذي القرنين»** عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾(٢٩) حيث ذكر «ابن كثير» بعض الروايات التي ذكرها «الطبري» في قراءة ﴿حَمِئَةٍ﴾، والتي تثبت أن لها قراءتين ﴿حَمِئَةٍ﴾ و﴿حَامِيَةٍ﴾، ثم ذكر اختيار «الطبري» فيهما؛ فقال: "وقال «ابن جرير»: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب"(٣٠). ثم **وافق «ابن جرير» في اختياره التوفيق بين القراءتين**؛ فقال: "قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وَهْج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿حَمِئَةٍ﴾ في ماء وطين أسود، كما قال «كعب الأحبار» وغيره"(٣١).

وفي هذا دليل على **تقليد «ابن كثير» لآراء شيخه شيخ المفسرين الإمام «ابن جرير الطبري»، لكنه تقليد مبني على علم، وفيه إضافة، فإضافته في الأولى** قوله: "**كما افتخر بهم واستعز**"، وذلك أنه قال لصاحبه في أول القصة: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾(٣٢)، فاعتزازه بهم في أول القصة كان سببا منطقيا في ذكر الله لهم في آخرها(٣٣)، وهي إضافة منطقية عزز بها «ابن كثير» اختياره الذي وافق اختيار شيخه، وهي – أيضا - من جملة «تفسير القرآن بالقرآن»، وفيها من إعمال العقل ما هو معلوم لمن تأمل ورزق الفهم. **وإضافته في الثانية:** عدم اكتفائه بتصحيح القراءتين، بل تجاوز

(٢٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٦٠.
(٢٨) انظر: الطبري: جامع البيان، ج١٨، ص٢٧ و٢٨.
(٢٩) سورة الكهف: الآية ٨٦.
(٣٠) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٩٢.
(٣١) الموضع نفسه.
(٣٢) سورة الكهف: الآية ٣٤.
(٣٣) وعلى الرغم من أن «سياق القصة» - هنا- قد يؤيد اختيار «ابن كثير»، إلا أن «السياق القرآني» لايؤيده - كما سبق وأن بينت في الفصل الخاص بـ«الطبري». يمكن مراجعة ذلك في موضعه.

ذلك إلى تصحيح معنيهما، **مما يدل على عمق علمه، وينبئ عن ظهور بعض ملامح شخصيته.**

* * *

المبحث الثاني: شخصية «ابن كثير» التفسيرية:

وتظهر شخصيةَ «ابن كثير» التفسيريةَ بوضوح لمن تأمل تفسيره لـ«قصص سورة الكهف»؛ فقد بدا ذلك واضحا – على سبيل المثال - في **«قصة أصحاب الكهف»** عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[٣٤] حيث قال «ابن كثير» - حاكيا عن شيخه «الطبري»-: "حكى «ابن جرير» في القائلين ذلك قولين: **أحدهما:** إنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم"(٣٥). ثم أضاف **قولا ثالثا** لم يأت به شيخه موضحا أنه اختياره هو؛ حيث قال: "**والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ**"[٣٦].

ثم لم يوافقهم على ذلك، بل **عرض قولهم على ميزان الشرع**، حيث أضاف قائلا: "**ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر**؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: **{لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد}**[٣٧] يحذر ما

---

(٣٤) سورة الكهف: الآية ٢١.

(٣٥) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٤٧.

(٣٦) الموضع نفسه.

(٣٧) الحديث: رواه «البخاري» في «صحيحه» من حديث أم المؤمنين «عائشة» (رضي الله عنها) في روايتين عنها، وكذا رواه «مسلم» في «صحيحه» عنها وعن «أبي هريرة» (رضي الله عنهما). (انظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ): الجامع المسند الصحيح المختصر من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسننه وأيامه – المعروف باسم «صحيح البخاري»، ج١ (ص٤٤٦، رقم ١٢٦٥) و (ص٤٦٨، رقم ١٣٢٤)، تحقيق وتعليق: د.مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت – لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٦ج. وانظر: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ): صحيح مسلم، ج١، ص٣٧٦، رقم (٥٢٩ و٥٣٠)، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ٥ج). ولم يرد في أي من الروايات الأربع لفظ (صالحيهم) المذكور هنا. إلا أنها جاءت في سياق آخر في حديث رواه «ابن حبان» في «صحيحه» عن «جندب» (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى

فعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين «**عمر بن الخطاب**» (رضي الله عنه) أنه لما وجد قبر «**دانيال**» في زمانه بـ«العراق»، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها"(٣٨).

وتتجلى شحصية «ابن كثير» بوضوح – هنا – **من خلال عدة أمور: أولا:** أنه لم يترك الاختيار في المسألة كما فعل «الطبري». **وثانيا:** أنه أضاف قولا ثالثا للقولين اللذين أوردهما «الطبري». **وثالثا:** أنه اختار القول الثالث الذي أضافه دون التعرض للقولين اللذين حكاهما شيخه، وفي ذلك من الأدب ما هو معلوم، وبذلك **يكون «ابن كثير» قد ضرب أروع الأمثلة في كيف يكون الاختلاف فيما بيننا؟ وكيف نختلف مع من قبلنا؟ ورابعا:** أنه عرض هذا القول المختار على ميزان الشرع - الذي هو الكتاب والسنة - ليرى مدى موافقته للشرع حتى يكون محلا للعمل، فوجده من خلال الأدلة فعلا مخالفا للشرع في زمانهم، ومن ثم فلا حاجة لنا فيه، وذلك إعمالا لقاعدة «**شرع مَن قبلنا شرع لنا ما لم يخالف شرعنا**» ، فكيف إن كان مخالفا لشرعهم وشرعنا، فإن ذلك يكون آكد في الرفض والاستغناء، ويلزم التوجيه والدلالة على فساده، وهذا ما فعله «ابن كثير» (رحمه الله). **وخامسا** – مما يجلي شخصية «ابن كثير» التفسيرية-: **دمجه بين النقل والعقل، فالأدلة التي ساقها من المنقول إلا أن استدعاءها لإثبات ما يريده – هنا – من المعقول.**

الله عليه وسلم) قبل أن يتوفى بخمس ليال خطب الناس، فقال: {أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيكُمْ إِخْوَةٌ وَأَصْدِقَاءُ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ أَتَّخِذَ مِنْكُمْ خَلِيلًا، وَلَوْ أَنِّي اتَّخَذْتُ مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ «أَبَا بَكْرٍ» خَلِيلًا، إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ «إِبْرَاهِيمَ» خَلِيلًا، وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، فَلَا تَتَّخِذُوا قُبُورَهُمْ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ}. (انظر: محمد بن حبان أبو حاتم البُستي(ت٣٥٤هـ): صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ج١٤، ص٣٣٤، رقم (٦٤٢٥)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ١٨ج).

(٣٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٤٧.

وهذا الحوار الدائر «**بين النقل والعقل**» يظهر كثيرا عند «ابن كثير» من خلال تفسيره لـــ«**قصص سورة الكهف**»، بل ومن خلال تفسيره كله، كما سبق وأن بينتُ في المبحث السابق، ولله الحمد والمِنة.

ومما يُجلي شخصية «ابن كثير» التفسيرية (النقدية) بوضوح أنه لم يكن موافقا شيخه على الدوام، بل خالفه في بعض المواضع التي رأى فيها الصواب في غير ما رآه شيخه، من ذلك ما فعل في «**قصة صاحب الجنتين**» عند ذكر قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ**﴾(٣٩) حيث قال «ابن كثير» (رحمه الله): "قيل: المراد به: المال. رُوي عن «ابن عباس»، و«مجاهد»، و«قتادة». وقيل: الثمار **وهو أظهر هاهنا**، ويؤيده القراءة الأخرى: ﴿**وَكَانَ لَهُ ثُمْرٌ**﴾ بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَة، كَخَشَبَة وخُشب، وقرأ آخرون: ﴿**ثَمَرٌ**﴾ بفتح الثاء والميم"(٤٠). فعلى الرغم من أن «ابن كثير» لخص – هنا- ما قاله «الطبري»(٤١) إلا أنه خالفه الرأي، حيث اختار أن معنى (الثمر): الثمار، بينما اختار «الطبري» أن معناه: المال(٤٢)، **وهذا يكشف عن شخصية «ابن كثير» المستقلة، وطبيعته النقدية الواعية، ونظرته الثاقبة.**

ومن ذلك – أيضا - ما فعل في نهاية «**قصة موسى والعبد الصالح**» حين قال: "فإن قيل: فما بال فتى «موسى» ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة «موسى» مع «الخضر» وذكر ما كان بينهما، وفتى «موسى» معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه «يُوشَع بن نون»، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد «موسى» (عليهما السلام)"(٤٣). حيث أعقب كلامه هذا بقوله: "**وهذا يدل على ضعف ما أورده «ابن جرير» في تفسيره** حيث قال: حدثنا «ابن حميد»، حدثنا «سلمة»، حدثني «ابن إسحاق»، عن «الحسن بن عمارة»، عن أبيه، عن

(٣٩) سورة الكهف: الآية ٣٤.
(٤٠) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٥٧.
(٤١) للوقوف على حقيقة ذلك انظر: الطبري: جامع البيان، ج١٨، ص٢٠ و٢١.
(٤٢) انظر: المصدر نفسه: ج١٨، ص٢١.
(٤٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٨٨.

«عكرمة» قال: قيل لـ«ابن عباس»: لم نسمع لفتى «موسى» بذكر من حديث وقد كان معه؟ فقال «ابن عباس» فيما يذكر من حديث الفتى قال: شرب الفتى من الماء، فخلد، فأخذه العالم، فطابق به سفينة، ثم أرسله في البحر، فإنها تموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه، فشرب"(٤٤). ثم قال – معلقا على رواية «ابن جرير» هذه-: "**إسناد ضعيف، و«الحسن» متروك، وأبوه غير معروف**"(٤٥). فضعفها – أولا- من جهة المتن، ثم ضعفها بعد ذلك من جهة السند.

وفي «**قصة ذي القرنين**» عند ذكر قوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذي القرنين قُلْ سَأَتْلُو عليكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾(٤٦) نقل «ابن كثير» أخبارا عن سبب تسمية «ذي القرنين» بهذا الاسم(٤٧)، نقل فيها روايتين من الثلاث روايات التي رواها «ابن جرير» بسنده عن «أبي الطفيل» عن «علي» (رضي الله عنه)؛ فقال: "وقال «سفيان الثوري» عن «حبيب بن أبي ثابت»، عن «أبي الطفيل» قال: سئل «علي» (رضي الله عنه)، عن «ذي القرنين»، فقال: كان عبدًا ناصحَ الله، فناصَحَه، دعا قومه إلى الله، فضربوه على قرنه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله، فضربوه على قرنه فمات، فسمي «ذا القرنين»"(٤٨). وكذا رواه «شعبة»، عن «القاسم بن أبي بَزَّة» عن «أبي الطفيل»، سمع «عليا» يقول ذلك"(٤٩). والذي اختاره «ابن كثير» من بين هذه الأقوال قول من قال: "إنه إنما سمي «ذا القرنين»؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب"(٥٠)، ولم يظهر اختيار «ابن كثير» بعد ذكره الروايات، وإنما ظهر اختياره بعدُ عند تفسير الآية التي تليها، وهي قول الله (عز وجل): ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ**﴾(٥١)، حيث قال (رحمه الله): "وقوله ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ**﴾ أي: أعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له

(٤٤) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٨٨. وانظر: ابن جرير الطبري: جامع البيان، ج١٥، ص١٨٢.

(٤٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٨٨.

(٤٦) سورة الكهف: الآية ٨٣.

(٤٧) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٨٩. وهذه الأخبار التي ذكرها هي كالتلخيص لما ذكره «الطبري» في تفسيره في هذا الموضع.

(٤٨) انظر: الموضع نفسه.

(٤٩) انظر: الموضع نفسه.

(٥٠) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٨٩.

(٥١) سورة الكهف: الآية ٨٤.

البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم"(٥٢)، ثم أعقب كلامه هذا بقوله: "**ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي «ذا القرنين»؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها**"(٥٣). ومن خلال اختياره – هنا- يتبين ضعف روايات «أبي الطفيل» عن «علي» (رضي الله عنه) - كما سبق وأن بينت في الفصل الأول الخاص بـ«ابن جرير الطبري»-. **ويتبين – أيضا- استقلال شخصية «ابن كثير» عن شيخه «ابن جرير» على الرغم من استفادته من تفسيره لكنها استفادة بنَّاءة تحمل القدرة على الإضافة، والدلالة على الحق، المُوافِق لمعيار الشرع، المُؤكَّد بمعطيات العقل.**

***

المبحث الثالث: اضطراد «المنهج النقدي» عند «ابن كثير»:

هذا، ولم تكن «**القصص الواردة في سورة الكهف**» فقط مجال ظهور شخصية «ابن كثير» التفسيرية، ذلك أن **المطالع لـ«تفسير ابن كثير» من أوله إلى آخره يرى كيف تعامل «ابن كثير» مع كل معطيات التفسير بالمأثور (التفسير النقلي) تعاملا تظهر فيه شخصيته بوضوح، من خلال نقده الواعي لما ينقل.**

ويكفيك للوقوف على حقيقة ذلك - على سبيل المثال - أن تطالع تفسيره - خارج «قصص سورة الكهف» موضوع الدراسة - لقول الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾(٥٤) فبعد أن فسر «ابن كثير» الآية بطريقته قال: "**ذكر «المفسرون» - هاهنا - آثارًا وأحاديثَ سأوردها**

(٥٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٨٩.
(٥٣) المصدر نفسه: ج٥، ص١٨٩ و١٩٠.
(٥٤) سورة الأعراف: الآيتان ١٨٩ و١٩٠.

وأبين ما فيها، ثم نتبع ذلك بيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله، وبه الثقة"(٥٥).

ثم ذكر رواية عن الإمام «**أحمد**» رواها في «**مسنده**» قال: "حدثنا «**عبد الصمد**»، حدثنا «**عمر بن إبراهيم**»، حدثنا «**قتادة**»، عن «**الحسن**»، عن «**سمرة**»، عن **النبي** (صلى الله عليه وسلم) قال: "**ولما ولدت «حواء» طاف بها «إبليس» – وكان لا يعيش لها ولد – فقال: سميه «عبد الحارث»؛ فإنه يعيش، فسمته «عبد الحارث»، فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**"(٥٦). ثم ذكر الروايات المختلفة لهذا الحديث فذكر أن «**ابن جرير**» **رواه هكذا** في «تفسيره»، وأن «**الترمذي**» رواه، وقال: "**هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث** «عمر بن إبراهيم»، عن «قتادة»، ورواه بعضهم عن «عبد الصمد»، **ولم يرفعه**"(٥٧). ثم قال: "ورواه «**الحاكم**» في «مستدركه»، من حديث «**عبد الصمد**» **مرفوعًا**، وقال: "**هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه**"(٥٨). وذكر – أيضا- أن «**ابن أبي حاتم**» رواه في «تفسيره» **مرفوعًا**. وكذا الحافظ «**أبو بكر بن مَرْدويه**»(٥٩).

ثم أعل «**ابن كثير**» **الحديث من ثلاثة وجوه**؛ حيث قال: "والغرض أن هذا **الحديث معلول من ثلاثة أوجه:**

- **أحدها:** أن «عمر بن إبراهيم» هذا هو البصري، **وقد وثقه «ابن معين»**، ولكن قال «أبو حاتم الرازي»: **لا يحتج به**. ولكن رواه «ابن مردويه» من حديث «المعتمر»، عن أبيه، عن «الحسن»، **عن «سمرة» مرفوعا**، فالله أعلم.

---

(٥٥) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٢٥.

(٥٦) انظر: المصدر نفسه: ج٣، ص٥٢٥ و٥٢٦.

(٥٧) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٢٦.

(٥٨) انظر: الموضع نفسه.

(٥٩) انظر: الموضع نفسه.

- **الثاني:** أنه **قد روي من قول «سمرة» نفسه، ليس مرفوعًا** - كما قال «ابن جرير» - أنه قال: "**سمى «آدم» ابنه «عبد الحارث»**".
- **الثالث:** أن «**الحسن**» **نفسه فسر الآية بغير هذا**، فلو كان هذا عنده عن «سمرة» مرفوعًا، لما عدل عنه"(٦٠).

ثم ذكر «ابن كثير» ثلاث روايات عن «ابن جرير» بسنده عن «الحسن» في قوله تعالى: ﴿**جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ قال في الأولى: "**كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بـــ«آدم»**"(٦١). وقال في الثانية: "**عنى بها ذرية «آدم»، ومن أشرك منهم بعده**"(٦٢). وقال في الثالثة: "**هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادًا، فهوّدوا ونَصَّروا**"(٦٣). ثم علق على هذه الروايات الثلاث بقوله: "**وهذه أسانيد صحيحة عن «الحسن» (رحمه الله) أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت (دلت) عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وَوَرَعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي**، ويحتمل أنه **تلقاه من بعض أهل الكتاب**، ممن آمن منهم، مثل: «**كعب**» أو «**وهب بن مُنَبّه**» وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله [تعالى] - **إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع**، والله أعلم"(٦٤).

ثم ذكر آثارا عن «**ابن عباس**» **كلها في معنى الحديث الأول**(٦٥)، ثم قال - معلقا على آخرها(٦٦)-: "**وقد تلقى هذا الأثر عن «ابن عباس» جماعة من**

---

(٦٠) انظر: الموضع نفسه.

(٦١) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٢٦.

(٦٢) انظر: الموضع نفسه.

(٦٣) انظر: المصدر نفسه: ج٣، ص٥٢٧.

(٦٤) الموضع نفسه.

(٦٥) انظر: الموضع نفسه.

أصحابه، كـ«مجاهد»، و«سعيد بن جبير»، و«عكرمة». ومن الطبقة الثانية: «قتادة»، و«السدي»، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة"(٦٧)، ثم كشف عن وجهة نظره في هذا الأثر المنقول عن «ابن عباس»، فقال: "وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن «ابن عباس» رواه عن «أُبي بن كعب»، كما رواه «ابن أبي حاتم»"(٦٨)، ثم ذكر رواية «ابن أبي حاتم» هذه مسندةً إلى «ابن عباس»، عن «أُبي بن كعب» قال: "لما حملت «حواء» أتاها الشيطان، فقال لها: أتطيعيني ويَسلَم لك ولدك؟ سميه «عبد الحارث»، فلم تفعلْ، فولدت، فمات. ثم حملت، فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل. ثم حملت الثالث، فجاءها، فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بَهِيمة، فهيَّبهما، فأطاعا"(٦٩).

ثم كشف عن وجهة نظره في جميع هذا المنقول الذي ذكره، قال: "وهذه الآثار يظهر عليها – والله أعلم – أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: {إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ}(٧٠)، ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه

---

(٦٦) وهي رواية «ابن أبي حاتم» عن «عبد الله بن المبارك»، عن «شريك»، عن «خصيف»، عن «سعيد بن جبير»، عن «ابن عباس» في قوله: (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا) قال: "قال الله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا) «آدم» (حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا)، فأتاهما «إبليس» (لعنه الله)، فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لَتطيعُنِّي أو لأجعلنَّ قرني له أيل، فيخرج من = = بطنك فيشقه، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ - يخوفهما - فسمِّياه «عبد الحارث»، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت الثانية، فأتاهما – أيضا –، فقال: أنا صاحبكما الذي فعلتُ ما فعلتُ، لتفعلُنَّ أو لأفعلنَّ - يخوفهما -، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت الثالثة، فأتاهما – أيضا –، فذكر لهما، فأدركهما حبُّ الولد، فسمَّياه «عبد الحارث»، فذلك قوله: (جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا)".

(٦٧) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٢٨.

(٦٨) الموضع نفسه.

(٦٩) انظر: الموضع نفسه.

(٧٠) الحديث: رواه الإمام «أحمد» في «المسند» قال: "حدثنا «حجاج»، قال: أخبرنا «ليث بن سعد»، قال: حدثني «عقيل»، عن «ابن شهاب»، عن «ابن أبي نملة»، أن «أبا نملة الأنصاري»، أخبره أنه بينا هو

الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله. ومنها **ما علمنا كذبه**، بما دُلَّ على خلافه من الكتاب والسنة – أيضًا-. ومنها: ما هو **مسكوت عنه**، فهو المأذون في روايته، بقوله (عليه السلام): {**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**}(٧١)، وهو الذي لا يصدَّق ولا يكذب، لقوله: "**فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم**". وهذا الأثر: هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر. فأما من حدث به من «صحَابيّ» أو «تابعيّ»؛ فإنه يراه من القسم الثالث، **وأما نحن**؛

جالس عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جاءه رجل من اليهود، فقال: يا «محمد»، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): {الله أعلَمُ}. قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): {إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ}". (انظر: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ) : مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٢٨، ص٤٦٠، رقم (١٧٢٢٥)، ج٢٨، ص٤٦٢، رقم (١٧٢٢٦)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد ، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ٤٥ج). قال «محققه» (هامش٢) - تعليقًا عليه -: "إسناده حسن، «ابن أبي نملة»- وذكر في بعض الروايات أن اسمه «نملة»: روى عنه جمع، وذكره «ابن حبان» في «الثقات» (٤٨٥/٥) في إحدى النسخ، ولم يطلع «المزي» ولا «الحافظ» على هذه النسخة، فلم يشيرا إلى وروده في «الثقات»، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، غير «أبي نملة» فلم يخرج له سوى «أبي داود». «حجاج»: هو «ابن محمد المصيصي الأعور»، و«عُقيل» - بضم العين- هو «ابن خالد الأيلي»" ا.هـ. هذا وقد ذكره «ابن جرير الطبري» في «التهذيب» وصححه؛ حيث قال - أثناء تهذيبه لأحد الآثار -: "والثالثة: أن الصحيح عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: {**إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ** فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ}. (انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ): تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، ص٥٤٥، تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، الطبعة الأولى، دار المأمون للتراث، دمشق – سوريا، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ١ج).

(٧١) الحديث: رواه بهذا اللفظ الإمام «أحمد» في «المسند»، من حديث «يحيى»، عن «محمد بن عمرو»، قال: حدثنا «أبو سلمة»، عن «أبي هريرة»، عن النبي (صلى الله عليه وسلم): {حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ}. ورواه – أيضا – عن «يزيد» عن «محمد بن عمرو» به. (انظر: أحمد بن حنبل: المسند، ج١٦، ص١٢٥، رقم (١٠١٣٠) / ج١٦، ص٣١٣، = = رقم (١٠٥٢٩)). قال «محققه» - «شعيب الأرنؤوط» - تعليقا على الحديث الأول: "صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل «محمد بن عمرو»- وهو «ابن علقمة الليثي»- فهو حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. «أبو سلمة» هو «ابن عبد الرحمن بن عوف»". (انظر: أحمد بن حنبل: المسند، ج١٦، ص١٢٥، رقم (١٠١٣٠)، هامش رقم (١)). وقال - تعليقا على الحديث الأول: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل «محمد بن عمرو»". (انظر: أحمد بن حنبل: المسند، ج١٦، ص٣١٣، رقم (١٠٥٢٩)، هامش رقم (٣)). والحديث - كما ذكر - صحيح لغيره، وهو الحديث الذي رواه «البخاري» في «صحيحه»؛ قال: "حدثنا «أبو عاصم الضحاك بن مَخلد» أخبرنا «الأوزاعي» حدثنا «حسان بن عطية» عن «أبي كبشة» عن «عبد الله بن عمرو»: أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: {بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ}. (انظر: صحيح البخاري، ج٣، ص١٢٧٥، رقم (٣٢٧٤)).

فعلى مذهب «الحسن البصري» (رحمه الله) في هذا، والله أعلم، وأنه ليس المراد من هذا السياق «آدم» و«حواء»، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٧٢)، ثم قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾(٧٣).."(٧٤).

هكذا بدت شخصية «ابن كثير» واضحة جلية من خلال مناقشته لهذه الآثار، إذ لم يمنعه رفع بعض أهل العلم لإحداها، ولم يمنعه – كذلك – كون المروي عنه في المجموعة الثانية من الآثار المذكورة إمام أئمة أهل التفسير «ابن عباس» (رضي الله عنهما)، ولم يمنعه تلقي الأئمة من تلاميذ «ابن عباس» وممن جاء بعدهم قولَ «ابن عباس» بالقبول - لم يمنعه كل ذلك من إعادة النظر وإعمال الفكر في هذا المنقول، بل ورفضه إن كان مخالفا لصحيح المنقول مباينا لصريح المعقول.

***

المبحث الرابع: شخصية «ابن كثير» النقدية و«مذهب الاعتدال»:

وكما لم تكن «القصص الواردة في سورة الكهف» فقط مجال ظهور شخصية «ابن كثير» التفسيرية (النقدية)، كذلك لم تكن تعليقاته على «الطبري» فقط هي مصدر الدلالة على ذلك، ذلك أن المطالع لـ«تفسير ابن كثير» من أوله

(٧٢) سورة الأعراف: الآية ١٩٠.

(٧٣) سورة الأعراف: الآيات ١٩١ – ١٩٥.

(٧٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٢٨ و٥٢٩.

إلى آخره يرى كيف تعامل «ابن كثير» مع المنقول عن «الطبري» وغيره من المفسرين ممن قبله وممن أتى بعده حتى وصل ذلك إلى مشايخه المباشرين، فهذا «ابن تيمية» (رحمه الله) أحد أهم مشايخه الذين أحبهم، يقول «ابن حجر»: "وأخذ – أي: «ابن كثير» – عن «ابن تيمية»، **ففتن بحبه، وامتحن لسببه**"(٧٥)، ولم تضنيه تلك المحنة على ترك ذلك الحب، بل **امتد حبه لشيخه حتى موته؛ حيث أوصى أن يدفن في تربة شيخه؛** يقول «**ابن ناصر الدين**»: "ودفن – أي: «ابن كثير»- بوصية منه في تربة شيخ الاسلام «ابن تيمية» بمقبرة للصوفية خارج باب «النصر» من «دمشق»"(٧٦).

لكن ذلك **الحب الشديد الذي جعله لا يفارق شيخه حيا أو ميتا – لم يكن حائلا دون الاعتدال في النظرة تجاه شيخه من غير إفراط ولا تفريط، من غير مبالغة قد تفضي إلى التسليم وإلغاء العقل بإلغاء دوره، ومن غير تفريط في حق شيخه، لكن «ابن كثير» أبقى للعقل قيمته حينما أبقى له دوره، وذلك حينما اعتبر «ابن تيمية»** - شيخه الذي أحبه كل هذا الحب – "**..ممن يصيب ويخطئ**"؛ يقول «**ابن كثير**» عن «**ابن تيمية**» - بعد أن ترجم له وذكر فضله بما في ذلك «جنازته المشهودة»-: "وبالجملة **كان (رحمه الله) من كبار العلماء وممن يخطئ ويصيب، ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطؤه** – أيضا- **مغفور له،** كما صح في «**البخاري**»: {**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ**

(٧٥) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ج١، ص١٢٥. بتصرف يسير.

(٧٦) محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي: الرد الوافر، ص٩٢، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٣٩٣هـ، ا.ج.

فله أجر}[٧٧]، فهو مأجور، وقال الإمام «مالك بن أنس»: "كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر (صلى الله عليه وسلم)". والله (سبحانه وتعالى) أعلم"(٧٨).

يفهم من هذا أنه اعتبر أن كلام شيخه «ابن تيمية» ليس محل تقديس، بل هو خاضع لمعايير الشرع، موضوع تحت مجهر العقل، لكنه في الوقت نفسه اعتبر أن خطأ شيخه ضئيلٌ جدا إذا قيس بالنسبة إلى صوابه، كما اعتبر أن خطأه مغفورٌ، وأنه عليه مأجورٌ. وهذا يدل على اعتداله في نظرته، ويدلك – أيضا - على اضطراد منهجه، ويكشف لك بجلاء عن ظهور شخصيته، لكنه ظهور لا بحثا عن الذات، بل بحثا عن الحقيقة من خلال معايير الشرع وباستخدام معطيات العقل.

***

الخاتمة:

هذه النظرة الاعتدالية الناقدة الواعية هي التي جعلت من «تفسير ابن كثير» تفسيرا ذا قيمة بلغت به الآفاق، وجعلت من صاحبه عالما رُفِعَ على الأعناق؛ يقول «السيوطي» في ترجمة الحافظ «ابن كثير»: "له التفسير الذي لم يؤلف على نمط مثله"[٧٩]. ويقول «الشوكاني»: "وله تصانيف مفيدة منها التفسير المشهور وهو في مجلدات وقد جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وتكلم

(٧٧) الحديث: أخرجه «البخاري» و«مسلم» في «صحيحهما» بلفظه من حديث «عمرو بن العاص»: أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: {إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ}. (انظر: صحيح البخاري، باب «بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ»، ج٦، ص ٢٦٧٦، رقم (٦٩١٩). وانظر: صحيح مسلم، باب «بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ»، ج٣، ص ١٣٤٢، رقم (١٧١٦)).

(٧٨) انظر: ابن ناصر الدين: الرد الوافر، ص٩٥.

(٧٩) أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ): ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، ص٢٣٩، تحقيق ودراسة: الشيخ زكريا عميرات، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، ١ج.

بأحسن كلام وأنفسه، **وهو من أحسن التفاسير ان لم يكن أحسنها** ،...، وله التاريخ المشهور، وقد انتفع الناس بمصنفاته ولا سيما التفسير"(٨٠).

وقيمة التفسير مرتبطة بقيمة صاحبه، وهذا أمر مرتبط بشخصية «ابن كثير» نفسها، فما كان ليكون كذلك لولا أن في «سماته الشخصية» ما يؤهله لذلك، وهذا ما أشار إليه «**ابن حجر العسقلاني**» في «**الدرر الكامنة**» من خلال قوله: "وكان – أي «ابن كثير» - **كثير الاستحضار حسن المفاكهة** سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته"(٨١). حيث استحضر سمتان شخصيتان إحداهما ذاتية؛ وهي قوله "**حسن المفاكهة**"، والأخرى مكتسبة؛ وهي قوله "**كثير الاستحضار**"، وقد ذكر هذين الوصفين قبل أن يتكلم عن تصانيفه، كيف سارت في البلاد في حياته، وكيف انتفع الناس بها بعد وفاته، وكأنه يريد بذلك أن يسوق لك السبب قبل ذكر المسبَّب / النتيجة، فذكر السمتين؛ لأن الناس تنتفع بتصانيفه حال حياته بهما معا، ويظهر لهم ذلك في مجالسه التي يدرس لهم فيها هذه التصانيف، وينتفعون بعد موته بالسمة المكتسبة التي هي "**كثرة الاستحضار**"، وهو أمر يبدو جليا بمجرد مطالعة تفسيره وتأمل مراجعاته وانتقاداته لمن سبقه من أهل العلم، فإن ذلك كله مبني على "**كثرة الاستحضار**".

وقد وصفه بهذا الوصف جماعة؛ يقول صاحب «**شذرات الذهب**»: "وكان كثير الاستحضار قليل النسيان **جيد الفهم** يشارك في العربية ،...، **ووصفه بحفظ المتون وكثرة الاستحضار جماعة** منهم «**الحسيني**» و«**العراقي**» وغيرهما"(٨٢).

---

(٨٠) محمد بن علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج١، ص١٤٣.

(٨١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١ ، ص١٢٥.

(٨٢) عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي (ت١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص٢٣١، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط - محمود الأرناؤوط، طبعة دار بن كثير، دمشق – سوريا، ١٤٠٦هـ، ١٠ج.

وقال «**الذهبي**» (ت٧٤٨هـ) في «**المعجم المختص**»: "... **وله حفظ ومعرفة يدمج قراءته**"(٨٣). ودمج القراءة هو الاستحضار.

وهذه الميزة وإن كانت هي سبب تقدم «ابن كثير» عند «الذهبي» على نحو ما ذكر في «**تذكرة الحفاظ**» من قوله عن «ابن كثير» أنه ".. خرج، وألف، وناظر، وصنف، **وفسر، وتقدم**"(٨٤). **إلا أنها لم تسعفه لتخرج به من دائرة النقل؛ لماذا؟** لأن ذلك الدمج يظل في دائرة النقل لا يبرحها حيث يجمع منقول إلى منقول، ثم يدمج بينها باستخدام آلة العقل، وهذا ما يكشف عنه قول «الذهبي» في «**المعجم المختص**» متحدثا عن «ابن كثير»: "..فقيه متقن، ومحدث متقن، **ومفسر نقال**"(٨٥). أي: كثير النقل، ونقل هذا عنه تلميذه الحافظ «**أبو المحاسن الحسيني**» في «ذيل التذكرة» بلفظ: "**مفسر نقاد**"(٨٦). ونقله عنه «**ابن حجر العسقلاني**» في «**الدرر الكامنة**» بلفظ: ".. **مفسر نقال**"(٨٧). ولعل نقل «ابن حجر» مصوب للأصل، **ولا يعنيني** - هنا - تصويب هذا أو تخطئة ذاك من جهة تصحيف أو تحريف؛ لأن الوصفين كليهما صواب، وكلٌّ وصفٍ منهما يكشف الحجاب عن شيء رآه صاحبه في «ابن كثير»، فغلَّبه، فإن **الشيخ** «**الذهبي**» - الذي هو شيخ «ابن كثير»- رأى في تلميذه - الذي سمع منه كما سبق وأن ذكر – ذلك الملتزم بكلام مَن سبقه من أهل العلم، وهذه ميزة معتبرة عندهم. أما **التلميذ** «**أبو المحاسن الحسيني**» - الذي هو تلميذ «ابن كثير»- فقد رأى في أستاذه شيئا فوق ذلك

---

(٨٣) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت٧٤٨هـ): المعجم المختص بالمحدثين، ص٥٦، تحقيق: د. روحية عبد الرحمن السويفي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ١ج.

(٨٤) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت٧٤٨هـ): تذكرة الحفاظ، ج٤، ص٢٠١، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ٤ج.

(٨٥) الذهبي: المعجم المختص بالمحدثين، ص٥٦.

(٨٦) انظر: أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن الحسيني الدمشقي: ذيل تذكرة الحفاظ، ص٣٨، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ١ج.

(٨٧) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١ ، ص١٢٥.

دفعه لأن يصفه بـ«**البراعة في التفسير**» وغيره من العلوم، حيث ذكر أنه "**.. برع في الفقه والتفسير والنحو..**"(٨٨)، هذه البراعة التي وصفها جعلته ينقل كلام «الذهبي» لا بعين «الذهبي»، بل بعينه هو، فجاء الوصف: "**مفسر نقاد**" بديلا للوصف "**مفسر نقال**"؛ **ليكشف عن رؤية التلميذ في مواجهة نظرة الشيخ**، ولم يكن «**أبو المحاسن**» – التلميذ – يحاول أن يكذب أو يدلس، بل غاية ما هنالك أنه رأى في شيخه ما يجعله مستحقا لوصف فوق ذلك الوصف مع علمه بميزان «الذهبي» ومدى اعتداله، فظن في الأمر تصحيفا أو تحريفا، لا سيما وأن الأمر متعلق بالاختلاف في حرف واحد، لكنه **اختلاف جوهري يدل على اختلاف في المنهج بما يكشف عن شخصية غير الشخصية**، لذلك أحب التلميذ وفق هذا الظن أن يرد لشيخه بعض حقه.

ولم يكن «أبو المحاسن الحسيني» هو الوحيد الذي وصفه بـ«البراعة في التفسير»، بل كان ذلك مما شهد له به غير واحد من أهل العلم، ووصفوه بأوصاف؛

- فهذا العلامة «**ابن ناصر الدين**» يقول عنه: "الشيخ الإمام العلامة الحافظ «عماد الدين»، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، **علم المفسرين**"(٨٩).
- وهذا «**ابن حبيب**» يذكره، فيقول: "إمام روى التسبيح والتهليل، **وزعيم أرباب التأويل**، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، **واشتهر بالضبط والتحرير**، **وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير**"(٩٠).

(٨٨) أبو المحاسن الحسيني: ذيل تذكرة الحفاظ، ص٣٨.
(٨٩) ابن ناصر الدين: الرد الوافر، ص٩٢.
(٩٠) انظر: عبد الحي العكري: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٣١.

- وهذا «**العيني**» (رحمه الله) يصفه بأنه: "كان **قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ...**" [٩١]، ثم قال: "وله مصنفات عديدة مفيدة"[٩٢].

بهذه **الشخصية النقدية الواعية** استطاع «ابن كثير» (رحمه الله) أن ينال إعجاب من أتو بعده حتى وصفوه بهذه الأوصاف المذكورة: ("**علم المفسرين**" .. "**زعيم أرباب التأويل**" .. "**قدوة العلماء والحفاظ**" .. "**عمدة أهل المعاني والألفاظ**" .. "**المشتهر بالضبط والتحرير**" .. "**الذي انتهت إليه رياسة العلم في .. التفسير**" .. إلخ)، ولم تكن هذه الأوصاف من فراغ، وقد ظهر ذلك كله في مصنفاته – كما قال «**العيني**»: "**وله مصنفات عديدة مفيدة**" –، وهي ما كانت لتكون مفيدة لو لم تكن هذه الشخصية بارزة فيها بوضوح.

***

(٩١) انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٣، ص٢٢٧.
(٩٢) انظر: الموضع نفسه.

المصادر والمراجع:

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: المصادر الأساسية:

- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ٨ج.
- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري (ت٣١٠هـ): جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ٢٤ج .

ثالثا: المصادر والمراجع الثانوية:

- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - وآخرون، إشراف: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ٤٥ج.
- عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي (ت١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط - محمود الأرناؤوط، طبعة دار بن كثير، دمشق – سوريا، ١٤٠٦هـ، ١٠ج.
- أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ): ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، تحقيق ودراسة: الشيخ زكريا عميرات، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ١ج.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ): الجامع المسند الصحيح المختصر من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسننه وأيامه - المعروف باسم «صحيح البخاري»، تحقيق وتعليق: د.مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت – لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٦ج.
- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت٧٤٨هـ): تذكرة الحفاظ، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ٤ج.

- ..... : المعجم المختص بالمحدثين، تحقيق: د. روحية عبد الرحمن السويفي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ١ج.
- محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي: الرد الوافر، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٣٩٣هـ، ١ج.
- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري (ت٣١٠هـ): تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، الطبعة الأولى، دار المأمون للتراث، دمشق – سوريا، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ١ج.
- أبو حاتم محمد بن حبان البُستي (ت٣٥٤هـ): صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ١٨ج.
- أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن الحسيني الدمشقي: ذيل تذكرة الحفاظ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ١ج.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ): صحيح مسلم، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ٥ج.

❖❖❖